الحلقة (٦)

الدرر الحسان في وصايا الصحابة ومن تبعهم بإحسان

وصايا الصديق أبي بكر في حياته وعلى فراش موته

إعداد: أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فيدعونا ما سبق أن ذكرناه لأبي بكر -من وصايا لأمراء الفتوح؛ وما أفادته من قِيَم سامية في آداب الحرب والتربية العسكرية وما يجب تحريه لاستجلاب أسباب النصر- لأن نستكمل دُرَرَه وجوامعَ كَلِمه وما أفاء الله به عليه من حِكَم؛ الأمة في مسيس الحاجة إليها لتُفيد منها في حاضرها ومستقبلها على نحو ما أفادت بها في ماضيها.

١- وصايا الصديق لعُمّاله وقُوّاد جنده بتقوى الله والإخلاص له:

لقد كان لأبي بكر -من غير وصاياه لفاتحي بلاد الشام- وصايا أخرى لعمرو بن العاص وبنحوها للوليد بن عقبة حين بعثهما على الصدقة؛ جاء فيها: "اتق الله في السر والعلانية؛ فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا.. فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، إنك في سبيل من سبل الله، لا يسعك فيه الإدهان -يعني: المداهنة والغش والتهاون في الحق- ولا التفريط ولا الغفلة عما فيه قوامُ دينكم، وعصمة أمركم فلا تَنِ ولا تفتر".

ولخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة، وفيها: "سِرْ على بركة الله؛ فإن دخلت أرض العدو؛ فكن بعيدًا من الحملة، فإني لا آمَن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات - الهجوم والمباغتة بالليل - فإن في العرب غرة - غفلة وعدم احتراز - وأقلل من الكلام، فإنما لك ما وُعي عنك، واقبل من الناس علانيتهم، وكِلهم إلى الله في سريرتهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه".

وأخرى لخالد بن سعيد بن العاص وفيها: "إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في الإسلام، وفضيلة عظيمة، والناس ناظرون إليك، ومستمعون منك، وقد خرجت في هذا

Upload by : altawhedmag.com

الوجه العظيم الأجر، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه لحسبة ونية صادقة إن شاء الله، فثبِّت العالم، وعلِّم الجاهل، وعاتب السفيه المترف، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق الله وللمسلمين عليك؛ واعمل لله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مُساءلون ومحاسبون، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنِقَمه من الخائفين" ثم أخذ يده فودعه.

ورابعة لهاشم بن عتبة وفيها: "إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، ومن الشاب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها، وأنت حديث السن مستقبل الخير؛ فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر، واعلم أنك لا تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة، ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة -أي: جوع- في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحًا، إن الله لا يضيع أجر المحسنين".

والحق أن جملة هذه الوصايا تمثل قواعد أساسية في حروب المسلمين، بحيث لا تأخذهم الحمية ضد عدوهم فيحيدون عنها، وتَنُمُّ عن فقه عميق في سياسة الدين والدنيا، وتدل على دراية الموصي وخبرته بدقائق الأمور العسكرية وتفصيلاتها، وقد توَّج الحاكم وصاياه ونصائحه بالتأكيد على أمر التقوى والصلاة، ليظل الجندي والقائد على اتصال بالله يطلبون منه العون والمدد، فتقوى عزائمهم ويتعمق اليقين في قلوبهم عند اللقاء ومواجهة الأعداء، وهكذا يتحقق النصر ويكتب لهذا الجيش ولمن سار على هديه من جيوش المسلمين على مر العصور والدهور: الفوز والغلبة على الأعداء، كما أنها تُذكِّر بواجبات القائد نحو جنده ونحو عدوه، وتمنعه من التعرض للمتدينين الذين حبَسوا أنفسهم في الصوامع احترامًا لدينهم، فهي من ثم من أحسن الوصايا وأكثرها نفعا لولاة الأمر وقادة الجند.

٢-وصية الصديق قبل وفاته لعمر بن الخطاب وما يفاد منها:

وثمة درسٌ للصِّديق في الزهادة في تولية إمارات المسلمين نستشفها من وصيته قبيل وفاته، لعمر بن الخطاب؛ فقد فكَّر الصديق أبو بكر أثناء مرضه في حال المسلمين من بعده، وجعل يستشير أصحابه فيمن يَخْلُفُه، وألهمه الله الرأي؛ وأنه لا سبيل إلى ملافاة ما جرى من حوارٍ وخلافٍ إبَّان سقيفة بني ساعدة؛ إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر من بعده، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه، وإن كان هذا أمر لم يصنعه رسول الله لحكمة ما.

"وبعدَ أن علم الفاروق أن أبا بكر قد اختاره خليفة له على المسلمين، دخل عليه عمر حزينًا وهو على فراش المرض فبادره أبو بكر بقوله: (إني قد استخلفتُك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوصيك بتقوى الله)، فقال له عمر: (قد استشرتَ الناس فيَّ ولم تستشرني في نفسي، فإني والله ما أريدها)، فقال أبو بكر: (لو علمتُ أنك تريدها ما وليتُك)، قال عمر: (أقلني يا أبا بكر)، قال أبو بكر: (والله لا أفعل وقد رضي بك أصحاب رسول الله، ولو لم يكن إلا أن أحملك عليها بالسيف لفعلتُ، فاسكتْ وادن مني أوصك)".

فانظر -يا رعاك الله- وتأمل كيف كان زهد عمر وهو من هو، في تولي إمارة المسلمين وتحمل مسئوليتهم، وقارن بينه وبين من

Upload by : altawhedmag.com

لا يساوي في عمر مثقال ذرة ولا حتى قدر شعرة أو قلامة ظفر من أولئك المُكَبِّين -من جماعات الشر والتكفير ومن لا دراية له بما يحيكه أعداء الأمة بالداخل والخارج- على ولايات المسلمين وتداعيهم عليها كما تداعي الأكلة على قصعتها.

على الرغم من عدم جواز توليتهم أصلًا أمور المسلمين لا ابتداءً ولا اختيارًا، لما "أمَرَ به الرسول صلى الله عليه وسلم بقتالهم؛ لأن معهم -على حدّ قول شيخ الإسلام ابن تيمية في (السياسة الشرعية ٢١٨/١)- دينًا فاسدًا لا يصلح به دنيا ولا آخرة"، ولأنهم كذلك مَن قال فيهم بأبي هو وأمي: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان).

ويتابع راوي وصية الصديق إبان مرضه للفاروق -بشأن تولية إمارة المسلمين- فيقول: "ثم أمسكَ أبو بكر بيد عمر بن الخطاب وقال له: (اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة".

وفي شرحه لمقصود أبي بكر في وصيته تلك بحق الله بالليل وبالنهار، يقول شيخ الإسلام في (مجموع الفتاوى: ٢٨/٢٢): "لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل، ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال، لا لحرث ولا لصناعة، ولا لجنابة ولا نجاسة؛ ولا صيد ولا لهو ولا لعب ولا لخدمة أستاذ، ولا غير ذلك، بل المسلمون كلهم متفقون على أن عليه أن يصلي الظهر والعصر بالنهار، ويصلي الفجر قبل طلوع الشمس، ولا يُترك ذلك لصناعة من الصناعات، ولا للهو ولا لغير ذلك من الأشغال؛ وليس للمالك أن يمنع مملوكه، ولا للمستأجر أن يمنع الأجير من الصلاة في وقتها".

كما ذكر ابن تيمية ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخصوص في الصحيحين: (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)، وروى رحمه الله قصة تأخير النبي صلاة العصر يوم غزوة الخندق ثم صلاها بعد المغرب فأنزل الله تعالى قوله: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» (البقرة: ٢٣٨)"، وأعقب يقول: "وهذا كله لأن فعل الصلاة في وقتها فرض، والوقت أوكد فرائض الصلاة، كما أن صيام شهر رمضان واجب في وقته، ليس لأحد أن يؤخره عن وقته، ولكن يجوز الجمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة باتفاق المسلمين، وكذلك يجوز الجمع بين صلاة المغرب والعشاء وبين الظهر والعصر عند كثير من العلماء للسفر والمرض ونحو ذلك من الأعذار".

ويستكمل أبو بكر وصيته لعمر، فيقول: "وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة؛ باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقَله عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلًا، وإنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة؛ باتباعهم الباطل في دار الدنيا وخفته عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وإنما نزلت آية الرخاء مع الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبًا راهبًا؛ لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه إلى التهلكة"؛ وما أحوجنا وشبابنا على جهة الخصوص؛ بمثل هذه الكلمات الدرر التي لا تخرج إلا من أفواه طاهرة وتجارب مريرة.

يقول: "وإن الله تعالى ذكرَ أهل الجنة؛ فذكرَهم بأحسن أعمالهم وتجاوزَ عن

Upload by : altawhedmag.com

سيئاتهم، فإذا ذكرتَ أهل الجنة فقل: (إني لأخاف أن لا ألحق بهم) - وفي رواية: (فإذا ذكرتهم فقل: فأين يقع عملي من عمل هؤلاء، وذلك لأن الله تعالى تجاوز عن أعمالهم السيئة فلم يفضحهم بها) - وإن الله تعالى ذكر أهل النار؛ فذكرهم بأسوأ أعمالهم وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرت أهل النار فقل: (إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء)، ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمته عز وجل، وارفق بالمسلمين، وأنصف بعضهم من بعض؛ وأنصفهم من نفسك".

إلى أن قال: ".. فإن أنت حفظتَ وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت؛ وهو آتيك - أو قال: ولابد لك من لقائه - وإن أنت ضيعت وصيتي؛ فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت؛ ولست بمعجزه".

وقد روى الطبراني من طريق الأغر أبي مالك هذه الوصية، لكن بلفظ: "لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر، بعث إليه فدعاه فقال: (إني أدعوك إلى أمر مُتعب لمن وليه، فاتق الله يا عمر بطاعته وأطعه بتقواه، فإن التُّقى أمرٌ محفوظ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به، فمَن أمَر بالحق وعمل بالباطل؛ وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر؛ يوشك أن تنقطع أمنيته وأن يحيط به عمله، فإن أنت وُليت أمرهم فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم؛ وأن تضمر بطنك من أموالهم؛ وأن تجف لسانك عن أعراضهم؛ فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله)".

وكان أن توجه الصدِّيق بالدعاء له قائلًا: "اللهُمَّ إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفتُ عليهم الفتنة، فعملتُ فيهم ما أنتَ أعلمُ به، واجتهدتُ لهم رأيي، فوَلَّيتُ عليهم خيرَهم وأقواهم عليه، وأحرصَهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلُفْني فيهم، فهم عبادُك ونواصيهم بيدك، فأصلحْ لهم أميرَهم، واجعلْهُ مِنْ خلفائك الرَّاشدين، يتبع هدى نبيِّ الرحمة، وهدى الصالحين بعده، وأصلحْ له رعيتَهُ".

٣- مجمل ما تضمنته وصايا الصديق والدروس المستفادة منها:

وما من شك في أن هذه الوصايا السبعة والمتمثلة في: (تقوى الله.. وتأدية العبادات والأعمال في أوقاتها.. وتقديم الفريضة على النافلة.. واتباع الحق وتجنب الباطل ليثقل ميزان العبد يوم القيامة.. والخوف من ألا يلحق المرء بأهل الجنة.. والرجاء في ألا يكون من أهل النار.. والإقبال على الله بقلب راغب غير آيس من رحمته)، تمثل حجر زاوية ونقطة انطلاق لكلِّ من كان مبتغاه رضوان الله والجنة، والزهد في هذه العاجلة؛ والرغبة فيما عنده سبحانه وفيما أعده لعباده في الباقية، وهذا ما كان عليه خلفاؤنا الراشدون.

فعن عائشة قالت: "لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، قال: (انظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ في الإمارة؛ فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي)، فنظرنا فإذا عبدٌ نوبيٌّ كان يحمل صبيانه، وإذا جَمَلٌ كان يَسقي بستانًا له، فبعثنا بهما إلى عمر.. قالت: (فأخبرني جدي أن عمر بكى؛ وقال: رحمة الله على أبي بكر؛ لقد أتعب مَن بعده تعبًا شديدًا)".

وعنها قالت: "لما ثقُل أبو بكر، قال: (أي يوم هذا؟)، قلنا: يوم الاثنين، قال: (فإني أرجو ما بيني وبين الليل)، قالت: وكان عليه ثوب، فقال: (إذا أنا متُّ فاغسلوا

Upload by : altawhedmag.com

ثوبي هذا وضُمُّوا إليه ثوبين جديدين، وكفنوني في ثلاثة أثواب)، فقلنا: أفلا نجعلها جُددًا كلها، قال: (لا)، فمات ليلة الثلاثاء، بين المغرب والعشاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين، وأوصى أن تغسله أسماء زوجته فغسَّلته، وأن يُدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر، ونزل في حفرته ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله.

وورد في تأبين عليٍّ لأبي بكر رضي الله عنهما أنه لما سمع بخبر وفاته جاء باكيًا مسرعًا مسترجعًا حتى وقف بالباب وهو يقول -وتلك رسالة لمن يتقربون إلى الله بلعن الصِّدِّيق-: "رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلفَ رسول الله وأنيسه ومستراحَه وثقتَه وموضعَ سرِّه ومشورته، وكنتَ أولَ القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدَّهم يقينًا، وأخوفَهم لله وأعظمهم غَنَاءً في دين الله، وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأحدبهم -أعطفهم وأشفقهم- على الإسلام، وآمنهم على أصحابه؛ وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب وأكثرهم سوابق؛ وأرفعهم درجة؛ وأقربهم وسيلة؛ وأشبههم هديًا وسمتًا، ورحمةً وفضلًا؛ وأشرفهم منزلة؛ وأكرمهم عليه؛ وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرًا، صدَّقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وسمَّاك الله في كتابه صديقا، فقال: «**والذي جاء بالصدق وصدَّق به**» (الزمر: ٣٣) يريد: محمدًا ويريدك.

كنت والله للإسلام حصنًا وللكافرين ناكبًا، لم تُضْلَل حجتك ولم تضعُف بصيرتُك ولم تجبن نفسُك، كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، وكنت كما قال رسول الله ضعيفًا في بدنك قويًّا في دينك، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله، جليلًا في الأرض كبيرًا عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوي والقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوي وتعطيه للضعيف، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلّنا بعدك" ا.هـ باختصار.. وينظر في الأثر (الثقات) لابن حبان ١٩٣/٢ و(الشريعة) للآجري ١٧٢٩/٤ و(الأحاديث المختارة) لضياء الدين المقدسي ١٣/٢ وقد أسهب في روايته، و(شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) ٥١/٢ لمخلوف محمد، وقد ساق عليها إجماع الرواة.

كما يُنظر في جملة وصايا الصديق: تاريخ الطبري ٢٩/٤ والعقد الفريد ٤٠/١ والكامل لابن الأثير ١٩٦/٢ وفتوح الشام ٧/١ ومجمع الزوائد ٢٢٠/٤ وتاريخ ابن عساكر ١٢٩/١ وحياة الصحابة ٣٥٦/٢ وجمهرة خطب العرب ١٩٥/١ وما بعد هذه الصفحات

رحم الله خليفتي رسول الله عليه السلام وعليهما الرضوان، فقد أظهرا أثر تأديبه صلى الله عليه وسلم وتربيته لهما ولسائر لأصحابه، ومن ثم لم يكن رحيلهما بالأمر السهل على المسلمين.

وللحديث صلة بإذن الله تعالى.

Upload by : altawhedmag.com